قاسم أمين
وفلسفة القانون

١٨٦٣ - ١٩٠٨

قاسم أمين وفلسفة القانون
(١٨٦٣ - ١٩٠٨)

فى الثالث والعشرين من أبريل ١٩٠٨ توفى « قاسم أمين » عن خمسة وأربعين عاماً ، فقد ولد فى أول ديسمبر ١٨٦٣ بالإسكندرية برغم أصله التركى ، فوالده كان « أميرالايا » بالجيش ، أما أمه فكانت مصرية . أمضى طفولته فى إستنابول ، ولكنه عاد إلى الإسكندرية ، ومنها إلى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الخديوية ، ثم بمدرسة الحقوق التى تخرج فيها عام ١٨٨١ ، وكان أول دفعته ، فسافر فى بعثة إلى فرنسا ، وعاد بعدها ليعين فى سلك القضاء ، ويصل وهو فى الحادية والثلاثين إلى منصب المستشار .

كان « قاسم أمين » هائماً يبحث عن الروح لا عن المادة

فى الحب وفى الحياة ، ومن هنا كان تطبيقه لروح القانون دون نصوصه الجافة ، بغير تحايل ولاتخريجات ، منطلقاً دائماً من روح الشريعة الإسلامية فى تطبيق الأحكام التى اتسمت عنده بالتسامح والرأفة والغفران ، ومناصرة الضعفاء والمظلومين ، وتغليب الفضيلة على الرذيلة ، والخير على الشر . فكان بذلك مُحَلِّلاً نفسيًّا ومصلحاً اجتماعيًّا ، وليس مجرد قاضٍ يطبق أحكام القانون ، فهو يرى أن القانون ما وضع لزيادة المجرمين مجرماً ، وإنما لإنقاصهم مجرماً ، وإغلاق باب زنزانة .. ومن أحكامه الشهيرة تبرئة « عبدالله النديم » المكافح الوطنى بعد محاكمة استمرت تسع سنوات كاملة ، ومن هنا ظهرت وطنية « قاسم أمين » ساطعة جلية .

فالوطنية – عند قاسم أمين – أقدس من أن تدنس بطمع الجشعين ، وانتهاز المتقلبين ، هى دين جديد علينا أن نؤمن به ونعمل من أجله لا من أجل أنفسنا ، فَلَذَّةُ المرء ليست فى جمع المال ولا فى تسلق المنصب ، ولكن اللذة الحقيقية هى فى أن يكون المرء قوة عاملة من أجل الوطن .

وقد ناصر « قاسم أمين » وأيد الدعوة إلى « الجامعة الإسلامية » التى كان جمال الدين الأفغانى ، و« محمد عبده » من أكبر دعاتها ، كما ناصر وأيد الدعوة إلى الوحدة الإسلامية التى كان سعد زغلول ومصطفى كامل من أكبر دعاتها .

ولهذا أسس الجمعية الخيرية الإسلامية بدرب الجماميز ، أما آخر ما فعله فهو خطابه الذى ألقاه قبل وفاته بأسبوع واحد يوضح فيه فكرة « الجامعة المصرية » التى عمل على إنشائها ، وافتتحت بالفعل فى العام نفسه .

قبل أن يضع « قاسم أمين » كتابه الشهير « تحرير المرأة » كان قد وضع كتاباً أخر يرد فيه على مزاعم « الدوق داركور » وانتقاداته لمظاهر الحياة المصرية .. ولكنه عاد ليفيد من ملاحظات الدوق وهو يكتب مقالاته الإصلاحية فى « المؤيد » ، وخاصة فيما يتعلق بتعليم الفتاة وخروجها إلى العمل ، والاكتفاء بالحجاب الشرعى ، وإن كان « رفاعة الطهطاوى » قد سبقه إلى المناداة بتعليم الفتاة ، كما سبقه « محمد عبده » إلى المطالبة بمساواة المرأة بالرجل ، ومع هذا لم يدعُ « قاسم أمين » إلى خروج المرأة إلى ميدان العمل إلا فى حالات الضرورة ، وفى وظيفة شريفة .

ويخطئ من يظن أن « قاسم أمين » قد دعا إلى « سفور المرأة » فقد اكتفى بتخفيف الحجاب فى حدود ما اتفق عليه الأئمة ، وهو سفور الوجه واليدين .. فكيف تقبل المرأة زوجاً لها ، وكيف تبيع أملاكها ، وكيف تزاول عملاً تعيش منه ، تجارة أو زراعة أو صناعة ، وهى مغلقة من رأسها إلى قدميها ، لاتقدر على التحرك فى قيدها ؟!

ولاشك أن المرأة التى تحافظ على شرفها وهى مطلقة غير محجبة لها من الفضل أضعاف ما لزميلتها ، لأن عفتها اختيارية وليست قهرية .. وعلى هذا لايصبح طبيعيًّا أن نفتخر بعفة نسائنا وهن سجينات ، مع أن السجن وحده لايمنع المرأة – إذا أرادت – من فقدان هذه العفة .. والغريب بعد ذلك – كما يقول قاسم أمين – أنه لايوجد فينا رجل يثق بامرأة .

أثار « تحرير المرأة » ضجة كبيرة وهُوجِم « محرر المرأة » هجوماً عنيفاً .. وقد ظهرت كتب عديدة خرجت تتهمه بالمروق من الدين وتحريض النساء على الفساد ، كتاب واحد أنصفه لطلعت حرب ، وكتاب المرأة الجديدة الذى رد فيه على أعدائه .

وكما أراد « قاسم أمين » أن يحرر المرأة من قيودها المتزمتة ، حرر أسلوب الكتابة من قيوده المفتعلة .. وكما ترك « مصطفى كامل » من بعده « محمد فريد » ليواصل رسالته الوطنية ترك « قاسم أمين » من بعده « هدى شعراوى » لتكمل رسالته الإصلاحية .

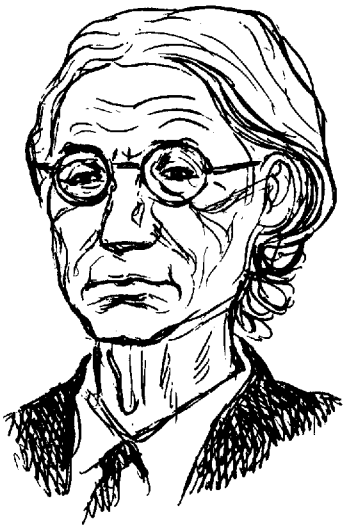

برتراند راسل
وفلسفة السلام

١٨٧٢ - ١٩٧٠

برتراند راسل وفلسفة السلام
(١٨٧٢ - ١٩٧٠)

الفيلسوف البريطانى « برتراند أرثر وليم إيرال راسل الثالث » توفى فى الثانى من فبراير عام ١٩٧٠ ، وكان قد ولد عام ١٨٧٢ ، أى أنه قارب مائة عام من حياة أتاحت له أن يكون شيخ الفلاسفة بحق ، وانقطاع خالص للفكر سمح له بأن يكون عالماً ومفكرًا وفيلسوفاً وسياسيًّا فى آن واحد .. مات أبواه كلاهما ولما يبلغ الرابعة من عمره ، وتولت تربيته جدته لأمه ، وهى ليدى راسل . وكان أبوه عضوًا فى البرلمان ، وصديقاً للفيلسوف « جون ستيوارت مل » الذى كان بمثابة الأب فى العماد لبرتراند ، فتعلم منه بعض الآراء التى كانت تصدم الناس فى ذلك الوقت ، ومنها « حق المرأة فى الانتخاب ، وتحديد النسل » .

واهتم راسل فى دراسته بالتاريخ الإنجليزى ، وصراع الشعب ضد الملك للحصول على الحرية الدستورية ، وبنظريات إقليدس الهندسية ومعارضتها . أما فى الأدب فلم يُعجب إلا بشعر « شيلى » . والتحق « راسل » بجامعة كمبردج ، وتتلمذ على يدى « وايتهد » وما إنْ تخرج من الجامعة عام ١٨٩٤ حتى عمل ملحقاً بالسفارة البريطانية بباريس ، تزوج فى العام التالى من أمريكية فلادلفية ، وعاشا فترة فى مقاطعة « سكس » داخل كوخ متفرغاً لدراسة الفلسفة والرياضة والاقتصاد والسياسة والتاريخ أيضاً ، فقد كان يملك من المال ما يغنيه عن الوظيفة بقيودها وأعبائها . زار روسيا عام ١٩٢٠ فعاد ثائرًا على « الشيوعية » وإن كان قد تعلَّم من زيارته للصين الإيمان بالمستقبل .

من أهم ما استحدثه « راسل » فلسفة العلم ، وبصفة خاصة « الفلسفة الرياضية » ، فإذا كانت الرياضة تستخدم الرموز والعلامات فإن الفلسفة الرياضية هى تحليل هذه الرموز وتلك العلامات ، وتحليل « العدد » أمر حديث العهد فى التاريخ ، تماماً مثل الصفر الذى لم يعرفه قدماء اليونان والرومان وإنْ عرفه قدماء العرب ، وهذا يبين أن الرياضة استمرار للمنطق . وهكذا برز كتابه الضخم « مبادئ الرياضة » وبحثه عن « الرياضيات وما وراء الطبيعة » ،

وتلخيصه لنظرية أينشتاين فى « ألف باء النسبية » ثم « المدخل إلى الفلسفة الرياضية » وتحليل المادة .

تعددت مؤلفات « راسل » فى الفلسفة العقلية فأصدر « مجمل الفلسفة » وتحليل العقل والمنطق والمعرفة ، وبحث فى معنى الحقيقة والمعرفة الإنسانية ومشاكل الفلسفة ، ثم تاريخ الفلسفة الغربية والتصوف والمنطق .

وتدور كل هذه المؤلفات حول عقل الإنسان وقدرته على إدراك ظواهر الوجود ، وقد قرب « راسل » هذه المشاكل الفلسفية المعقدة حتى إلى مفهوم رجل الشارع العادى .

أما ما عرف رجل الشارع براسل فهى مواقفه التى حمل فيها مسئولية الفكر والكلمة ، ودفع فيها ضريبتهما ، فقد ترك مجلس اللوردات إلى غياهب السجن ، وجرد من لقب اللورد وعزل من الجامعة ، وعقد مؤتمرًا اشترك فيه الآلاف من العلماء والأدباء لمناهضة التجارب الذرية ، وتحذير الحكومات من الدمار الذى ينتظر العالم ، وقد كتب نداء وقع عليه « أينشتاين » لأنه البديل ، وهو الحل ، وهكذا كتب « آمال جديدة » لعالم متغير . ولعل أشهر مواقفه هى تلك التى انصبت فى « محكمة راسل » التى عقدها عام ١٩٦٦ برئاسة « سارتر » لإدانة الحرب الفيتنامية ، ومحاكمة مرتكبى

جرائمها من رؤساء وحكومات . وكانت هذه « المحكمة » هى ثمرة المؤسسة العالمية للسلام التى أنشأها عام ١٩٦٣ على نفقته الخاصة ، وكذلك إدانته للعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وخطابه لكل من خروشوف وأيزنهاور عام ١٩٥٨ دفاعاً عن السلام العالمى .

حصل « راسل » على جائزة نوبل عام ١٩٥٠ اعترافاً بفضله على الإنسانية ، وإسهامه فى رسالة العدالة والحرية والتسامح والسلام .

وقد رثى « راسل » نفسه بقوله : « بموت راسل انقطعت حلقة تربط حاضرنا بالماضى البعيد ، ولكن ما من مفكر صائب الرأى يستطيع أن يعترف بأن الذين ماتوا دفاعاً عن الحق فى الكفاح الهائل قد ماتوا عبثًا » .

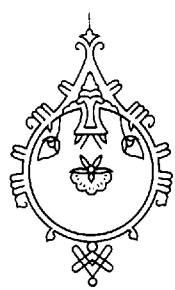

إقبال
والفلسفة الصوفية

١٨٧٣ - ١٩٣٨

إقبـال والفلسفـة الصوفيـة
(١٨٧٣ - ١٩٣٨)

فجعت الهند والعالم الإسلامى بأسره ، فى موت فيلسوف الصوفية وصوفى الفلاسفة الشاعر « محمد إقبال » عن خمسة وستين عاماً ، فى الحادى والعشرين من أبريل عام ١٩٣٨ بالتحديد ... وكان « إقبال » قد ولد عام ١٨٧٣ فى مدينة سيالكوت الهندية ، ثم نال ليسانس الفلسفة من جامعة لاهور التى نصب للتدريس بها ، كما نال الدكتوراه من جامعة كمبردج فى فلسفة الأخلاق ، فضلا عن إجادته للغة الألمانية التى تعلمها فى ألمانيا ، ودراسته للقانون ، ثم عمله بالمحاماة طوال حياته .. ومع هذا لم يكف عن نظم الشعر والتعريف بالفلسفة الإسلامية .

دعا « إقبال » إلى تجديد الفكر الدينى الإسلامى ، فجعل

الفلسفة قلب دعوته ، والشعر قالبها ، والتصوف روحها الخفاق .

كُلُّ شَعْبٍ قام يبنـــى نَهْضَةً
وأرى بُنْيَانكـــم مُنْقَسِمـــا
فى قَديـمِ الدَّهْـرِ كُنتم أُمـــةً
لَهْفَ نَفْسِى كيف صِرْتُم أُمَمَا ؟!

وأصدر « إقبال » تسعة دواوين باللغتين : الفارسية والأُردية ، أبرزها جميعاً ديوانه الأول « أسرار خودى » أو « أسرار الذات » .. وفكرته عن « الذات » هى المحور الذى ترتكز عليه فلسفته ، والذى يدور فى فلكه إنتاجه كله ، شعرًا كان أو أدباً ، تصوفاً أو فلسفة ، اجتماعاً أو سياسة ، علماً أو حتى فى القانون .. ولعله أفاد من نظرية الألمانى « نيتشه » فى « الإنسان الكامل » وآراء الفرنسى « برجسون » فى « منبعا الأخلاق والدين » وخطرات ونفحات الفارسى « جلال الدين الرومى » فى « الصوفية » .

هى فلسفة أمل وعمل ، وكرامة وحرية .. فإقبال يدعو إلى إثبات الذات لانفيها ، وتفجير كل ما فيها من قوى إيجابية خَلاَّقة ، قادرة على أن تحقق لها الحرية والاستقلال ، مع أن الذات لاتتحقق إلا فى الجماعة التى تنتظم الأفراد وتمكنهم من بلوغ الكمال .

لقد استطاع « إقبال » أن يقيم العلاقة بين الله والإنسان .. فإذا كانت ذات الله هى الذات الكاملة التى لاتشبهها ذات أخرى على الإطلاق ، كان المثل الأعلى أمام الإنسان هو أن يتخلق بأخلاق الله ، وأن يسود الأرض التى سخرها له الله ، لأنه خليفة الله فى الأرض .

أما ذات الإنسان فتكمل أو تنقص بمقدار قُربها أو بُعدها عن ذات الله ، قرباً لايفنى الذات الإنسانية فى الذات الإلٰهية ، كما تؤمن بعض المذاهب الصوفية ، ولكنه قرب صوفى يؤمن بالثبوت والبقاء ، كما يؤمن بأن العالم مظهر لجمال الله وحكمته وإرادته .. فالعالم ليس خطيئة ، إنما هو أداة لامتحان الذات ، معيار كل شيء ، الخير والشر ، والجمال والقبح ، والحق والباطل .

وعلى هذا يعارض « إقبال » الذين يدعون أن عالم المادة وَهْمٌ باطل وضلال مبين .. فيكفى عالم المادة أنه من خلق الله ، شأنه شأن العوالم الأخرى غير المادية ، وأبرزها جميعاً عالم الروح .

هذه الفلسفة هى فى حقيقتها فلسفة إسلامية خالصة ، استوحاها « إقبال » من تعاليم الإسلام ومن سيرة النبى الكريم ، الذى حقق ذاته بحيث أصبحت أكمل الذوات

وأكثرها قرباً من ذات الله .. وعظمة ذات النبى هى فى أنه « خاتم النبيين » .. وفكرة « ختام النبوة » من أعظم الأفكار فى تعاليم الإسلام ، لأن النبوة ببلوغها الكمال الأعظم تلغى النبوة نفسها ، لإدراكها استحالة اعتماد الوجود إلى الأبد على فرد يقوده .. وهكذا يبطل الإسلام الرهبنة ويدعو إلى مناشدة العقل والاعتماد على وسائله ..

على المسلم إذَنْ أن يَصِلَ حاضره بماضيه ، وأن يعيد بناء حياته الفكرية والاجتماعية فى ضوء تعاليم الإسلام .. ويتابع التطور ويلاحق التجدد ليواكب العصر .. وهى رسالة عزة وتفاؤل يوجهها شاعر الجمال والجلال ، وفيلسوف السلام والإسلام « محمد إقبال » ، الذى أحس الحياة فأخضعها وقهرها ، وأحس ما بعد الحياة فاستقبله وتقبله :

إنِّـى مسلـمٌ لا أَرْهَبُ المَـوْتَ
إذا جاءَ الموتُ لقيتُـه مبتسمـاً

لـــورانـــس
وفلسفة الفـــن

١٨٨٥ - ١٩٣٠

لورانـــس وفلسفـة الفـن
(١٨٨٥ - ١٩٣٠)

فى الثانى من مارس عام ١٩٣٠ رحل « ديفيد هربرت لورانس » الذى ولد عام ١٨٨٥ فى إحدى قرى نوتنجهام بإنجلترا . تأثر « لورانس » بنشأته الفقيرة المتواضعة وسط عمال المناجم الذين كان والده واحدًا منهم ، فعبر عن هذا الجو ودافع عنه فى رسائله ورواياته ، كما تأثر باتجاه « فرويد » فى التحليل النفسى ، ولهذا تميزت رواياته بالتحليل الدقيق لنوازع الإنسانية وغرائزها الطبيعية الصادقة التى كاد المجتمع الصناعى يقضى عليها .

ولكنه جاهد قبل ذلك ليتعلم ويفوز بجائزة دراسية أتاحت له فرصة الالتحاق بالجامعة ، وبعد التخرج داهمته الأحداث ، فأُصِيب بالتهاب رئوى ، وصُدِم فى موت أمه ، حتى إنه فكر فى

الانتحار ، وتزوج من سيدة ألمانية يسرت أمامه سبل الحياة الخاصة وإن تسببت فى ازدراء مواطنيه له أثناء الحرب العالمية الأولى ، على اعتبار أنها من جنس الأعداء ، أما هو فلم يشترك فى الحرب ، لأنه كان يمقتها ويقول : « هذه الحضارة تنهار بعد ألفى عام ، وهذه حضارة الموت والتخريف » . وكان يعجب لهؤلاء الأحياء الذين يطلبون الموت ، والأجدر بهم أن يطلبوا الحياة . ويقول : « لابد أن أوربا تنتحر وتموت » . وفى أعقاب الحرب هجر بلاده إلى الأبد ، هجرها إلى إيطاليا ، ثم إلى أستراليا والمكسيك حتى عاد إلى أوربا الفتية برغم ما أصابها من شيخوخة مبكرة .

أما مفتاح شخصية « لورانس » ففى أعماله العدائية التى تكاد تكون ترجمة كاملة لهذا الروائى عليل الجسم والروح : « أبناء وعشاق » ١٩١٣ ، و« قوس قزح » ١٩١٥ و« نساء عاشقات » ١٩٢١ ، و« عشيق الليدى تشاترلى » ١٩٢٨ .

ولورانس لم يكن مثل غيره من الأدباء أديبًا فحسب ، ولكنه كان أيضاً صاحب سيرة ، أى أنه كتب فملأت شهرته الآفاق ، وعاش فملأت سيرته الحياة ، ومن هنا برز كواحد من أعظم كُتَّاب الرواية على مر العصور ، لأنه كان أيضاً صاحب نظرية وصاحب رسالة . وتتلخص نظرية لورانس فى أن : « كل ما هو ذاتى الحياة هو ذاتى » تلك العبارة الموجزة هى التى تفرق بين

الأديب بشكل عام ، والروائى بشكل خاص ، وكل من رجل الدين الذى يتحدث عن الأرواح – حتى فى السماء – والفيلسوف الذى يفكر فى اللانهائية ، والنفس الخالصة المدركة لكل شىء ، والعَالِم الذى يضع الإنسان تحت المجهر ولايراه إلا مجموعة أجزاء .

رجل الدين يرغب فى تقديم نفسه كغذاء روحى للجماهير ، والفيلسوف لايرى الوجود إلا كلمات وأفكارًا ونظراتٍ وأمانى ، فهو يحلم لنفسه وللآخرين بالفردوس ، والعالم يتعامل مع جسم الإنسان دون أن يدرك سر روحه وعقله ومشاعره .

أما الروائى فهو يرى أن « الكل أعظم من الجزء » ، وأن الإنسان الحى أعظم من روحه ونفسه وعقله ووعيه . والرواية هى كتاب الحياة المشرق ، ففيها لاتستطيع الشخصيات أن تفعل شيئاً إلا أن تحيا بخيرها وشرها وأهوائها ، وإلا توقفت عن الحياة .. فالناس يذهبون أحياناً إلى الصحراء لمناجاة الله ، وأحياناً يذهبون إلى الصحراء للبحث عن المال ، وفى غير الصحراء يبحث الناس عن المال والإصلاح السياسى ، والتبشير بالحب اللانهائى ، مع أن الحياة ليست هى كل هذا ، أو ليست هذا فحسب .

ووظيفة الفن هى الكشف عن العلاقة بين الإنسان وبين عالمه

فى مكان وزمان محددين .. ورجال الدين والفلاسفة والعلماء يسعون جميعاً إلى تثبيت الأشياء لتحقيق مبدأ التوازن .. رجل الدين مشغول بالإله الواحد ، والفيلسوف مشغول بالأفكار الجامدة ، والعالِم مشغول بالقوانين الدقيقة .. أما الروائى فيرى التوازن فى الميزان العادل ، ذلك الذى لايرجح كفة على أخرى ، أى لايرجح الخير والحق والجمال على الشر والباطل والقبح ، لأن الحياة وعاء لكل هذه الصفات مجتمعة ، وكل ما عداها من صفات متناقضة ومتعارضة .

أما رسالة « لورانس » ، فهى الحب ، وهى رفع ستار الخفايا والخبايا عن الحب ، وتعليم الناس كيف يحبون فى عالم تسوده الكراهية .

هذه الرسالة هى التى دفعت « لورانس » إلى أدب عظيم يتميز طابعه بالثراء وبالبقاء .

أحمد أمين
وفلسفة التراث

١٨٨٦ - ١٩٥٤

أحمد أمين وفلسفة التراث
(١٨٨٦ - ١٩٥٤)

فى أول أكتوبر عام ١٨٨٦ ولد الشيخ الدكتور « أحمد أمين » بحى الخليفة بالقاهرة .. علمه والده « الشيخ إبراهيم » الوافد من قرية « سمخراط » بالبحيرة ، القراءة قبل أن يرسله إلى « كتَّاب » بنباقادن ليحفظ القرآن الكريم .. ولما شب الفتى اطلع على الكتب والمخطوطات التى كان ينسخها والده بهدف حفظ التراث وصيانته ، فأقبل على دراسته بالأزهر ، ولكنه ترك الدراسة للتدريس بطنطا ، ثم بالإسكندرية ، ثم بالقاهرة . والتحق بمدرسة القضاء الشرعى وتخرج فيها عام ١٩١١ ، ودرس فيها حتى استقر فى كلية الآداب عام ١٩٢٦ حتى أصبح عميدًا لها عام ١٩٣٦ ، وكان قد تنقل فى المحاكم قاضياً شرعيًّا عُرِفَ بالعدل والإنصاف ، حتى تُوفى فى ٣٠ مايو عام ١٩٥٤ .

لم ينبهر بالحضارة الغربية ولم يرفضها ، فى الوقت الذى تمسك فيه بالتقاليد الشرقية والتراثين : الإسلامى والعربى ... ويعد « أحمد أمين » من الرواد العرب الأوائل الذين انتزعوا من المستشرقين مهمة تحقيق التراث والتعليق عليه ، سواء كان مدوناً فى مخطوطات ثمينة أو منشورًا فى مطبوعات قديمة ، حفاظاً على تاريخنا الذى كاد أن يندثر ، وإحياء لحضارتنا التى تكاد تضيع .. وقاد « أحمد أمين » الرأى الذى يقول بتحقيق التراث الجدير بالنشر فقط ، والذى له صلة بالثقافة المعاصرة ، دون إضاعة للوقت والجهد فى تحقيق آلاف المخطوطات التى لاتصلح مضامينها ولاأساليبها لزماننا الحاضر .. وعلى هذا بدأ باختيار قصة « حى بن يقظان » للفيلسوف الأندلسى « ابن طفيل » أستاذ الفيلسوف الشهير « ابن رشد » ، لِما فى هذه القصة من عناصر أساسية وعامة شبيهة بقصة « روسو » المعروفة « إميل أو التربية » ، ثم أشرك معه مجموعة كبيرة من المحققين الذين تمرسوا بهذا العمل الدقيق ، منهم : د. شوقى ضيق ، ود . إحسان عباس فى « فريدة القصر وخريدة العصر » للأصفهانى ، وإبراهيم الأبيارى ، وأحمد الزين فى « العقد الفريد » ، وعبد السلام هارون وعدد من المحققين فى البلاد العربية فى مقدمتها سورية والعراق والمغرب ولبنان ، وناصر الدين الأسد وعبدالله كنون ومحمد يوسف نجم ..

وكما أسهم فى إحياء التراث بالتحقيق والتعليق أسهم أيضاً فى ترسيخ الفكر الدينى بدراساته الإسلامية المعاصرة : « فَجر الإسلام » ، « ضُحَى الإسلام » ، « ظُهْر الإسلام » و« يَوْم الإسلام » .. فقد أدرك « أحمد أمين » منذ البداية أن « الإصلاح الاجتماعى » لايمكن أن يستقيم إلا تأسيساً على « الإصلاح الدينى » وخاصة بعد أن تزعزع إيمان الناس نتيجة للاستعمار والتخطيط السياسى ، ولهذا أصدر كتابه الهام « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » وفيه قدم عشرة من أبرز المصلحين فى الإسلام ، تشكل نزعاتهم الإصلاحية مجتمعة رؤية واحدة موحدة لما كان يصبو إليه « أحمد أمين » كمصلح معاصر جاء بعد هؤلاء جميعاً ، وفى وقت تحتاج فيه الأمة الإسلامية والعربية إلى كثير من الإصلاح فى أمورها الدينية والدنيوية معاً .. وكان يهدف إلى تجديد دعوة الإصلاح التى نادى بها هؤلاء المصلحون من « محمد بن عبد الوهاب » فى الجزيرة العربية إلى « محمد عبده » و« عبدالله النديم » و« على مبارك » فى مصر ، مارا بتركيا « مدحت باشا » ، والهند « أحمد خان » و« أمير على » و« أفغانستان » « جمال الدين الأفغانى » وتونس « خير الدين التونسى » وسوريا « عبد الرحمٰن الكواكبى » .

وهكذا ترك « أحمد أمين » أثاراً كثيرة فى الدراسات

الإسلامية والعربية ، تتميز بالتفكير المنطقى السليم ، والمنهج النقدى القويم ، والتحليل الفلسفى الدقيق ، فضلا عن المقارنة والتعقيب والتفسير ، كما وضح تأثيره الكبير على العرب والمستشرقين الذين أفادوا من طريقته الفريدة فى البحث العلمى واستخراج النصوص ، وتنسيق الصور والفصول .. أما دعوته الإصلاحية فكانت الامتداد التاريخى والطبيعى لكل الدعوات الحضارية التجديدية ، تطويرًا لحياتنا الفكرية ، وتأصيلاً لتراثنا المجيد .

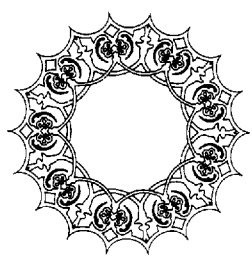

هيكل
وفلسفة التجديد

١٨٨٨ - ١٩٥٦

هيكـل وفلسفـة التجديـد
(١٨٨٨ - ١٩٥٦)

فى اليوم العشرين من أغسطس عام ١٨٨٨ ولد « محمد حسين هيكل » بالسنبلاوين بالقرب من المنصورة ، لأبوين ريفيين ولكن متيسرين .. أدخله والده العمدة « كتّاب القرية » ليتم حفظ القرآن ، ثم أرسله إلى القاهرة ليحصل على البكالوريا من المدرسة الخديوية عام ١٩٠٥ .. وكان يقضى إجازته السنوية فى القرية يقرأ ويكتب ويحرر مجلة « الفضيلة » الحائطية .. والتحق « هيكل » بمدرسة الحقوق ، وكانت تربطه صلة نسب بأستاذ الجيل « أحمد لطفى السيد » فاتصل به وكتب فى جريدته « الجريدة » عن « تحرير المرأة » ، كما نشر بها روايته الشهيرة « زينب » مسلسلة بتوقيع « مصرى فلاح » ، تفادياً لثائرة الإقطاعيين .. وحصل « هيكل » على

الدكتوراه فى القانون من الجامعة الفرنسية ، وهو بعد فى الرابعة والعشرين من عمره .

رأس « هيكل » تحرير جريدة السياسة ، والسياسة الأسبوعية ، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين ، ثم عين وزيرًا للدولة ، فوزيرًا للمعارف فى ثلاث وزارات متتالية ، حتى اختير رئيساً لمجلس الشيوخ .. وفى عهد الثورة أخذ يكتب فى جريدة « الأخبار » حتى رحيله فى الثامن من ديسمبر عام ١٩٥٦ عن (٦٨) عاماً .

نادى هيكل بالديمقراطية على أساس أنها تلائم المزاج المصرى والطبيعة المصرية ، بل والدين الإسلامى أيضاً ، فهو دين تتوزع فيه الثروة بحكم التوريث توزيعاً يحول دون تكدسها أو بقائها فى يد أسرة بالذات ، ويفتح باب المجهود الذاتى بذلك واسعاً ، مع دعوة التعاليم الإسلامية إلى ما تدعو إليه الديمقراطية من حقوق الأفراد فى حرية الفكر وفى التعليم ، وفى السعى والعمل .. وطبيعة هذه البلاد تتفق مع هذه التعاليم وتُعَاوِن عليها .. فهذا النهر الذى يسقى الناس جميعاً ، ويخصب الأرض جميعاً ، ويبعث الحياة من مائة حيثما جرى ، وهذه الشمس التى لاتضن على أحد بنورها ودفئها ، وبما فى أشعتها من أسباب النشاط والصحة ، وهذا الوادى المنبسط ، والصحراء المنسبطة فيها وراءه ، ذلك كله يوائم التفكير

الديمقراطى ، ويمتزج أشد الامتزاج معه ، وهو على العكس من ذلك ، ينفر من التحكم أشد النفور ، ولهذا لم يستطع متحكم أن يرغم شعب مصر على غير ما يريده ، ولم يحتج هذا الشعب إلى الثورات الدموية الجامحة ليتغلب على خصومه ، لأن طبيعته تعاونه على المتحكمين فى أمره ، وتضطرهم برغم ما يكون لديهم من أسباب القوة والبطش للتفاهم وإياه لأَخْذِهِ بالحُسْنَى . ثم النزول لإرادته ، فإن لم يفعلوا نبذتهم الطبيعة المصرية ، فلم يبقوا فى الوادى إلا ريثما ينصرفون عن مُوَدَّعِين من الشعب بالمقت والاحتقار .

ونادى « هيكل » بالتجديد والتحرر اجتماعيًّا وسياسيًّا ، وعلى المستوى الأدبى أيضاً ، نتيجة لاحتكاكه بالشعب الفرنسى وإعجابه بأدباء فرنسا ، واقتناعه بتعاليم « الثورة الفرنسية » ، والأساس فى كل ذلك هو « حب الحرية » والنزعة نحو « التجديد » .. وقد كانت دعوة « تحرير المرأة » تتزايد ، ودعوة التجديد فى مدرسة السياسة الفكرية تتصدى لحزبى المحافظة معاً : الوفد ، والوطنى . ودعوة العدالة الاجتماعية تجد صداها فى الكتابة الأدبية المتأثرة حيناً بكتّاب الغرب مثل « روسو » ، وحيناً آخر بمصلحينا الأساتذة والأئمة معاً .

وعندما تولدت « الثورة الفكرية » من ثورة ١٩١٩

السياسية كان هيكل من أوائل وأكثر المفكرين الذين يقصرون الدعوة على حرية الفكر والرأى فى السياسة والأدب ، بل نادى بحرية البحث حتى فى الدين ، دون أن يكون ذلك تجديفاً وإلحادًا ، اقتناعاً منه ، ونتيجة لدراساته الفلسفية بأن الشك هو الطريق الأمثل والقويم للإيمان ، أو روح الإيمان كما تحدث عنها فى كتابيه « حياة محمد » و« منزل الوحى » .

وهكذا خرج « محمد حسين هيكل » المفكر العربى الإسلامى بتلك المعادلة الحضارية والإنسانية التى تجمع بين « عقل الغرب » و« إلهام الشرق » فى إطار عصرى من التوحيد والتجديد والحرية .

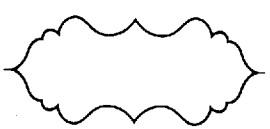

العقـــــاد
وفلسفة الإسلام

١٨٨٩ - ١٩٦٤

العقـــاد وفلسفـــة الإســـلام
(١٨٨٩ - ١٩٦٤)

فى الثالث عشر من مارس ١٩٦٤ رحل عن عالمنا عبقرى العبقريات ، المدافع عن الإسلام والسلام « عباس محمود العقاد » ليستقر فى أسوان ، حيث ولد فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٨٨٩ . جاء إلى القاهرة وهو فى الخامسة عشرة لايحمل غير « الابتدائية » وبدلا من أن يلتحق بوظيفة أو يستكمل دراسته تفرغ للقراءة والكتابة ، وعاش منهما ولهما دون زوجة أو ولد ، فبدأ بالكتابة للصحف ، وانتهى إلى إصدار (٨٥) كتاباً فى الأدب والفن والعلم والمعارف الإنسانية والإسلامية واهتم بالسياسة ، ووطد صداقته بسعد زغلول ، فأسهم فى تحريك ثورة ١٩١٩ ، ثم بمصطفى النحاس ، فانتخب مرتين عضوًا فى مجلس النواب ، وعين

مرتين عضوًا فى مجلس الشيوخ . حارب من أجل الدستور وإرساء الحياة النيابية ، فأصاب هجومه « الملك فؤاد » نفسه عندما قال قولته الشهيرة : « إن شعبنا قادر على سحق أكبر رأس يتعرض لحرياته » فهُوجِمَ فى رزقه ، وسُجن تسعة أشهر .

وكانت للعقاد معارك فكرية كثيرة وثرية ، مع مصطفى صادق الرافعى ، وأمين الرافعى ، وأحمد شوقى ، وطه حسين ، وزكى مبارك ، ومحمد حسين هيكل ، ولطفى السيد ، ومكرم عبيد ، وتوفيق الحكيم . كما كانت له – على الوجه الآخر – تراجم تاريخية تحليلية عن عباقرة الإسلام « محمد » من الأنبياء . وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، من الخلفاء . وخالد ، ومعاوية ، وفاطمة ، والحسين ، من الصحابة . والغزالى ، وابن رشد ، وابن سينا ، ومحمد عبده ، من المفكرين ، وبلال ، وسلمان ، وصهيب ، من النُّسَّاك . والحلاَّج ، والسهروردى ، وابن عربى ، من الصوفية .

وقد دافع العقاد عن الإسلام دفاعاً مجيدًا ، لا من حيث هو دين حنيف فحسب ، ولكن من حيث هو فكر قويم أيضاً ، وهذا ما يتجلى فى كتبه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » و« مطلع النور » ، و« ما يقال عن الإسلام » . ووضح العقاد

فلسفة الإسلام وموقف الدين الإسلامى من الإنسان والقَدَر والشيطان والعبادة والمعاملة والديمقراطية والأمة والمرأة ، وهذا ما يظهر جليا فى كتابيه : « الإنسان فى القرآن » و « المرأة فى القرآن » . وكما كان العقاد من دعاة العلم فهو أيضاً من دعاة الإيمان ، إذ يقول : « إذا كان الإسلام لم يعطل العقل والفكر ، وقد أطلقهما إلى أوسع الحدود فلايمكن أن يضيق بالفلسفة التى تفكر فى حقائق الأشياء ، طالما أن التفكير فى السمٰوات والأرض من فرائض الإسلام المتواترة » .

فقد حاول « العقاد » من كل هذا أن يصل إلى « أيديولوجية إسلامية » تقف فى مواجهة الاشتراكية والرأسمالية على السواء .

يؤمن « العقاد » بأن الروح هى حقيقة الوجود ، وأن الجوهر هو الأصل الكامن وراء الظاهر ، أما المادة فهى الوسيلة . وهو لايرى مثل الأقدمين أن « الروح حركة لاكثافة فيها ، والمادة كثافة لاحركة فيها » لأن الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لاتقاس عنده بمقياس الأرقام والأنابيب . كما أن حركة التاريخ لم تستقم فى أى اتجاه كما استقامت فى اتجاه الحرية الفردية ، متخذة من ثلاثية أفلاطون المثالية « الحق ، والخير ، والجمال » شعلة تستنير بها . ويسلم « العقاد » بأن الوجود أو الموجود شيء أعم وأشمل من المعرفة

أو « المعروف » ، فالتفكير العلمى هو القدرة على ملاحظة التجارب المحسوسة ، والتفكير الرياضى هو القدرة على تصور الافتراضات المجردة .

ويرى العقاد أن الأخلاق تعتمد على الضمير الذى قوامه الصراحة والوفاء والإخاء والسلام ، والذى يستهدى بفكرة « الأمر الجازم » دون تنصُّل من مسئولية أو فرار من واجب . والأخلاق عنده تعنى « الغيرية » لا« الأنانية » . ويجد العقاد أن الجمال فى الفهم والطبيعة معنوى وليس شكليًّا ، فالأشكال لاتعجبنا إلا لمعنى تحركه أو توحى به ، والجمال غير حرية الإرادة والاختيار التى تميز بدورها الإنسان عن سائر الكائنات والموجودات . ولهذا أطلق « الدكتور زكى نجيب محمود » على « العقاد » هذه التفرقة « أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدب » .

أليس هو القائل :

خلعت اسمى على الدنيا ورسمى فلا أنعى رحيلى أو مقامى

توينبي
وفلسفة التاريخ

١٨٨٩ - ١٩٧٥

توينبى وفلسفة التاريخ
(١٨٨٩ - ١٩٧٥)

هو واحد من أبرز الأصوات العالمية التى طالبت بحل مشكلة الشعب الفلسطينى كشرط لتحقيق سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط ، إنه المؤرخ الإنجليزى « أرنولد جوزيف توينبى » الذى وُلد فى الرابع عشر من أبريل عام ١٨٨٩ بلندن .. تعلم وعلم بجامعة أكسفورد ، ووصل إلى قمة التخصص فى التاريخ ، ووعيه بفلسفته فى أشهر مؤلفاته « دراسة فى التاريخ » وفيه يفسر قيام الحضارات على أساس « التحدى والاستجابة » مستنكرًا فكرة قيام التاريخ على فلسفة قدرية أو ثقافية أو أخلاقية ، مؤمناً بأن القوى النفسية وليست القوى المادية هى التى تسير مجرى التاريخ فى حياة الشعوب والأمم .

أشاد « توينبى » فى بحثه « مركز العالم الإسلامى » بالإسلام ، نظرًا لأن تعاليمه السمحة أزالت فروق الجنس واللون بين الناس . وفى دراسته لتاريخ الأديان يمزج توينبى بين « أمون رع » و« يهوا » و« سقراط » و« كونفشيوس » و« المسيح » و« محمد » . ويفسر فكرة التعبد الدينى مبيناً أن الإنسان بدأ بعبادة الطبيعة ، ثم تطور إلى عبادة الحقيقة المجردة الممثلة فى فكرة الرب أو الإله .

ويعارض « توينبى » فكرة أن اليهود هم شعب الله المختار ، ويتهم الصهيونية بأنها حركة تحاول أن تحقق بالقوة وعدًا دينيًّا بالعودة إلى أرض فلسطين ، أو إسرائيل كما يطلقون عليها . أما الثقافة اليهودية فتعد – فى رأيه – بقايا متحجرة من العصور القديمة . وقد ندد « توينبى » بالأعمال الوحشية التى قام بها الصهيونيون ضد عرب فلسطين ، تلك الأعمال التى تفوق فى وحشيتها أعمال النازية ضد اليهود ، ويقول : من المؤسف للإنسانية حقاً أن أناسًا كاليهود ذاقوا العذاب والألم على يد النازية يُذِيقُونَ غيرهم ذات العذاب والألم . ويستنكر « توينبى » الحرب واستخدام السلاح كوسيلة لإقرار السلام فى العالم . ووقف ضد عدوان ١٩٥٦ الثلاثى على مصر ، واستنكر العدوان الأمريكى على فيتنام ، وهاجم مؤامرة حرب ١٩٦٧ ، ونادى باستقلال الجزائر وكل الشعوب

المُسْتَعْمَرَة ، وندد بالتدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ، وطالب بالانسحاب من الجنوب العربى ، وتصدى لسياسة التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا ، ومع هذا ناصر « انتصار أكتوبر » كسبيل وحيد لفرض الحل السلمى عن طريق العمل العسكرى .

وتتلخص « فلسفة التاريخ » عند توينبى « فى تحقيق الذات » وكفاح الأشخاص والشعوب المستمر من أجل أشياء أعظم ، ليست هى القوة ولاهى الغرور والأنانية ، وإنما تتمثل هذه الأشياء الأعظم فى البقاء والتحدى والحضارة الثقافية والروحية المبدعة ، علماً بأن القواعد التى تنطبق على الحضارات وتختلف عن تلك التى تنطبق على الأجناس ، ذلك أن الحضارة الحقة هى التى تنهض بعد تدهور وتزداد ازدهارًا بعد طول اضمحلال ، بعكس الحضارة الفقاعية التى لاتقوم على أسس قوية ، فيسهل ضربها ويسهل اختفاؤها . ويؤمن « توينبى » بأن البشرية تتجه الآن إلى فصل جديد من تاريخها سيقع فيه عبء الاختيار ، لابين عالم موحد وعالم منقسم ، وإنما بين أن يعيش فى ظل عالم واحد ، وألا يكون هناك عالم على الإطلاق . ولكنه يؤكد على ثقته من أن الجنس البشرى سيختار الحياة والخير بدلا من الموت والشر ، ولذلك فإن المستقبل سيكون للعالم الواحد ، حيث يختفى التعصب

العقائدى ، وتحل القيم التى تتفق عليها جميع الأديان ، وحيث تختفى الحدود المصطنعة سياسيًّا لتنشأ القوميات الكبيرة ، تمهيدًا لقيام حكومة عالمية واحدة ، وحيث يختفى التخصص ، لكى تحل محله النظرة الشاملة الواعية للشئون الإنسانية .

وأخيرًا يفرق « توينبى » – الذى رحل عن عالمنا فى الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧٥ – بين الذين يصنعهم التاريخ ، وهؤلاء العظماء الذين يصنعون التاريخ .

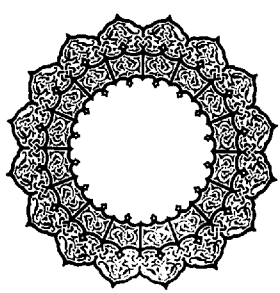

طه حسين
وفلسفة المنهج

١٨٨٩ - ١٩٧٣

طـه حســين وفلسفة المنهج
(١٨٨٩ - ١٩٧٣)

أربعة وتسعون سنة إلا قليلاً مرت على مولد « طه حسين » فى الرابع عشر من نوفمبر ١٨٨٩ بقرية عزبة الكيلو بمغاغة ، وقد توفى فى القاهرة فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ ..

أدخله والده الشيخ الفقير – الذى أنجبت له زوجته ثلاثة عشر ولدًا وبنتاً هو سابعهم – « كتَّاب » القرية بعد أن فقد بصره وهو فى الثالثة من عمره ليحفظ القرآن الكريم .. انتقل قبل أن يبلغ الثامنة إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر إلى جانب شقيقه الأكبر ، وظل فيه عشر سنوات ، تركه بعدها إلى الجامعة الأهلية ، حيث حصل على أول دكتوراه عام ١٩١٤

عن رسالته « فى ذكرى أبى العلاء » .. ثم سافر إلى فرنسا وحصل على دكتوراه أخرى بالفرنسية فى « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » من جامعة مونبلييه .. وتزوج عام ١٩١٧ من زميلته الفرنسية ورفيقة حياته وكفاحه وأمجاده « سوزان » التى أنجبت له « مؤنس » و« أمينة » .. عُيِّنَ أستاذًا للأدب العربى فى كلية الآداب ، ثم عميدًا لها ، ثم مديرًا للجامعة ، فوزيرًا للمعارف ، ومع هذا كانت شخصيته أقوى دائماً من كل مناصبه .

كتب « طه حسين » فى صحف « مصر الفتاة » و« الجريدة » و« العلم » و« الهداية » الشعر العمودى والحر ، والمقالة الأدبية والسياسية ، والقصة القصيرة والطويلة ، والنقد النظرى والتطبيقى ، فأسس المدرسة الأدبية الحديثة التى تنادى بالبحث العلمى كأساس للدراسات ، وبالحرية والقوة والانطلاق كمنهج للتفكير . وأثار لأول مرة معركة القديم والحديث فى الأدب ، والتى كانت بداية الانتفاض والبعث الأدبى .. كما أثار كتابه « فى الشعر الجاهلى » ثائرة خصومه الذين أشاعوا أن آراءه منافية لروح الدين ، وأن صاحبه كافر .

كان طه حسين مؤمناً بأن حرية الكاتب لايمكن تقييدها بقيود ، وأن الإيمان بمبدأ يستلزم الدفاع عنه ، مهما كلف

صاحبه من جهد وجهاد .. ولولا تمسكه بقيم الفكر لَمَا استطاع أن يوفق بين التراث الغربى والتراث الشرقى ، وأن يحافظ على التوازن المثمر بينهما .

فإذا كان « عميد الأدب العربى » يدين بالكثير للفكر الفرنسى ، فإن الفكر الفرنسى مدين له بالكثير .. أجيال وأجيال إذن هنا وهناك تدين له ، فقد كان همزة الوصل الناضجة والواعية والراسخة بين الثقافتين الكبريين .. أما الثقافتان اليونانية واللاتينية فقد قرنهما بعصر النضج كحلقة فى تطور ثقافتنا المعاصرة وفكرنا الحديث .. ولذلك وجد المستشرقون فى أعمال « طه حسين » الأدبية صورة حيَّة من الأدب الذاتى فى شكله المعاصر ..

وضع « طه حسين » فى كتابه المهم « مستقبل الثقافة فى مصر » برنامجاً عمليًّا فى نظم التعليم حتى تلحق مصر بركب العلم والمعرفة ، ومن هنا كانت دعوته المدوية والشهيرة بأن يصبح العلم كالماء والهواء حقًّا لكل مصرى ، فكانت مجانية التعليم هى أولى خطوات برنامجه الثقافى الواسع النطاق والآفاق .. وكما دعا إلى تحرير الإنسان بشكل عام ، وإنسان وطنه بشكل خاص من الجهل ، دعا أيضاً إلى تحريرهما من الفقر والمرض .

التجديد فى الفكر ، والتجديد فى المجتمع ، هما الثورتان المتعاقبتان المتصلتان فى حياة « طه حسين » ، فبعد تعميم التعليم وتأميمه طالب برفع الظلم عن الطبقات المعدمة والكادحة استنادًا إلى الدعوة الإسلامية فى جوهرها وصميمها .. ومن هنا جاء اهتمامه بالدراسات الإسلامية من ناحية ، وارتباطه بالأحزاب السياسية الشعبية من ناحية أخرى ، فهو يريد أن يتصل بالجماهير العريضة حتى يصل إليها بدون أن يتعالى عليها ، لأنه يفكر لها وليس لطبقة متميزة من عِلْيَة القوم وصفوة المجتمع .

لقد انتهج « طه حسين » منهج الشك الديكارتى وقواعده المؤكدة ، التى تعصم ذهن الباحث من الوقوع فى الخطأ ، وتهديه إلى بلوغ الصواب ، ولهذا انتهى باليقين الكامل إلى الإيمان المطلق .. واستحدث المنهج الاجتماعى فى تحليل الشخصيات الفكرية والأدبية ، كما فى كتابيه : « قادة الفكر » و« الفتنة الكبرى » .. وهو إذ يجارى أسلوب « الجاحظ » فى سخريته إنما يضفى عليه عقل « فولتير » الراجح وروحه النافذة .

وهكذا تندلع ثورة « طه حسين » الثالثة ، وهى إرساء قواعد المنهج العقلانى فى فكرنا العربى .. أما الفلسفة – عنده – فإن صاحبها هو من يجمع الحكمة علماً وعملاً ،

وتكون حياته موافقة لنتائج بحثه .. و« طه حسين » نفسه فيلسوف بهذا المعنى ذاته ، وليس فيلسوفاً بالمعنى التقليدى للكلمة ، فحياته هى فكره وفكرنا ، وفكره هو حياته وحياتنا .

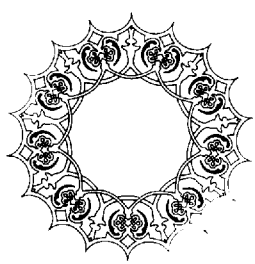

الحكيم..
والفلسفة التعادلية

١٨٩٨ - ١٩٨٧

الحكيـــم .. والفلسفة التعادلية
(١٨٩٨ - ١٩٨٧)

يبلغ شيخ مفكرينا « توفيق الحكيم » عامه التاسع والثمانين - قبل رحيله فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٨٧ - وكان لايزال فى قمة عطائه الفكرى والأدبى ، برغم شدة بخله المادى . ولعله يطبق بهذا - وعلى نفسه - فلسفته التعادلية ، فأسرته كانت ميسورة قبل مولده فى التاسع من أكتوبر عام ١٨٩٨ بالإسكندرية ، وظلت كذلك بعد حصوله على ليسانس الحقوق عام ١٩٢٤ ، وانخراطه فى السلك القضائى متبعاً خطوات والده الذى وصل إلى منصب القاضى ثم المستشار .. ولكن الحكيم كان مشغوفاً بالحركة الوطنية وبالمسرح .. فاشترك مع الطلبة فى ثورة ١٩١٩ ، وكتب للمسرح أكثر من مسرحية تهاجم الإنجليز « الضيف

الثقيل » وتعالج مشكلات المرأة والمجتمع « المرأة الجديدة » و« جنسنا اللطيف » و« الخروج من الجنة » و« على بابا » .

انزعج والداه من هذا الاتجاه ، فعمل على إبعاده فى باريس بحجة حصوله على الدكتوراه ، وهناك وجد « الحكيم » فرصة أكبر لإشباع مواهبه وإنضاج فنه وفكره .. وعاد بعد ثلاث سنوات مخيباً ظن والديه ، وإن عمل سبع سنوات وكيلاً للنائب العام فى المحاكم المختلطة ثم الأهلية ، كان نتاجها جميعاً « يوميات نائب فى الأرياف » و« ذكريات الفن والعدالة » .. كما كان نتاج باريس « عصفور من الشرق » و« زهرة العمر » .

وانتقل « الحكيم » من السلك القضائى إلى العمل الحكومى بوزارتى المعارف والشئون ، حتى استقال عام ١٩٤٣ ليلتحق بأخبار اليوم على مدى ثمانى سنوات ، عين بعدها مديرًا لدار الكتب ، ثم عضوًا دائماً بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، ثم مندوباً مقيماً لمصر باليونسكو ، إلى أن استقر « بالأهرام » كاتباً ورئيساً شرفيًّا لمجلس إدارته .

ويعنينا هنا الآن فكر « الحكيم » الذى ظهر فى روايته « عودة الروح » وفى مسرحياته « أهل الكهف » و« السلطان الحائر » و« الصفقة » و« الورطة » و« شمس النهار » وفى

تأملاته « تحت شمس الفكر » و« شجرة الحكم » و« سجن العمر » والكتب الخمسين الأخرى التى نشرت من عام ١٩٢٦ حتى اليوم ، والتى ترجم أغلبها إلى عشر لغات حية .

هذا الفكر يتبلور فى مذهبه النابع من معتقداته وموروثاته الدينية ، والذى أسماه « التعادلية » .. و« التعادلية » فى جوهرها « وسط » بين الأمور والأشياء ، وهى فى صميمها تقر بحقيقة « أن كل موجود من الله » ، وأن الموجودات المادية والمرئية والحسية لابد أن واجدها – بحسب نظرية النقيض – غير مادى وغير مرئى وغير حسى ... ولذلك فإن الحرية عند « الحكيم » مقيدة وليست مطلقة كما هى عند « سارتر » الذى يقول بأن القيد الوحيد المفروض على الإنسان هو حريته ذاتها ... وتتطور « تعادلية » الحكيم فتضع الكون بين متناقضين ، ومن ثم تعترف بالنقيضين أو بالشىء ونقيضه .. فالحياة يقابلها الموت ، والإيمان يقابله الكفر ، والحب تقابله الكراهية ، والعلم يقابله الجهل ، والثراء يقابله الفقر ، والقوة يقابلها الضعف ، والحرية تقابلها العبودية ، والعدل يقابله الظلم ، والنهار يقابله الليل ، والشمس يقابلها القمر ، والبرد يقابله الحر ، والرجل تقابله المرأة ، والصواب يقابله الخطأ ، والكرم يقابله البخل .. وهكذا .

وهكذا تنشأ الحركة وتنتظم فى درجة معينة من التعادل ،

وعندما يفرط فى جانب يقاومه الجانب الآخر ، حتى يصلا إلى نقطة التعادل ، فيستقيم الكون ، ويستمر الوجود .

وعلى ذلك فإن حرية الإنسان يقابلها قيد الزمن ، ولافكاك لأحد من هذا القيد ، لأن الحرية محكومة بزمانها ومكانها ، أو هى محاصرة من العالم الخارجى ، وإن وجودها المطلق لايتحقق إلا داخل النفس .. فإذا خرجت إلى الوجود فعليها أن تنزلق فى هوادة حتى لاتتهشم نتيجة للصدام المروع بالضرورة ... ولايجد « الحكيم » فى هذا الحصار شعورًا بعجز الإنسان أمام القوى الضاغطة عليه ، المؤثرة فى مصيره ، ولكنه يجد فى هذا الحصار دعوة للانفكاك وحافزًا على الكفاح .. فلايكفى الإنسان أن ينادى بحريته أو يعلن عنها ، ولكنه مطالب بتحقيق خَلَاصِهِ بالطرق المشروعة إنسانيًّا ودينيًّا واجتماعيًّا . والحكيم يقف هو الآخر بين نقيضين بفضل تعادليته ، فهو يقف بين « سارتر » بحريته المطلقة وبين « الميثولوجيا الإغريقية » بعبوديتها المطلقة .

والتعادلية ، بعد ذلك هى قبول الأمر الواقع بدون محاولة حمقاء لتغييره ، فقط عليها تكييفه ، لأنها لاتقوى على التخلص من نقاط الضعف ، وإن كان عليها أن تزيد من نقاط القوة ، ليحدث التوازن بحيث يعيش الخير إلى جانب الشر ، والتقدم إلى جانب التخلف ، لأن هذه هى سُنة الحياة .

ويلخص « الحكيم » فلسفته التعادلية فى مبادئ خمسة :
الوجود هو التعادل مع الغير ، فبغير الغير لايوجد وجود ..
الفكر يجب أن يكون معادلاً للعمل ، فلايخضع أحدهما للآخر .. الضعف والنقص حالات لها ما يقابلها من قوى معوضة معادلة ، فالخير يجب أن يوازن الشر .. العقل بمنطقه وشكله يجب أن يعادل القلب بشعوره وإيمانه .. قوة التعبير فى الإبداع يجب أن تعادل قوة التفسير ، فلا تطغى إحداهما على الأخرى .

وأخيرًا يطالب « الحكيم » الإنسان – كل إنسان – بالعمل على معرفة حقيقته ، ليعرف كل الحقائق الأخرى بعد ذلك .